ذات يوم عاتبته. قلت: لم أعد أراك لا في الشارع كما رأيتك في المرات الثلاث التي جئتني فيها، ولا في إغفاءاتي القصيرة، ولا حتى في عمق النوم والمنام، لماذا تضن على بزياراتك؟ قال. مشغول. استغربت. كدت أسأله إن كان يتعيّن على الشهداء أن يذهبوا هناك أيضا إلى الوظيفة كل يوم. كدت أسأل ولم أفعل، قلت قد يؤلمه سؤالي، قد يحرجه إذ يتصور أنني ألمّح أنه في محبس الموت بلا شغل ولا مشغلة، وقد يظن أنني صرت كالآخرين أعتقد أن الموت أخذه تماما، وأنه صار حبيسا أبديا فيه. سوف أسكت حرجاً وسوف يسكت حرجاً، ويتسبب السكوت في سوء الفهم. كانت تلك الأفكار تدور في رأسي قرأها على ما يبدو. قال لي: «لدينا عمل كثير هذه الأيام. في الصباح نهيئ مكانا للقادمين الجدد، فاق عددهم كل توقع. علينا أن نمهد لهم الأرض، نغرس أشجار التين والزيتون والنخل العالي، ونبذر بذور الريحان والخزامى والورد الدمشقي وياسمين العراق. علينا أن نبني بيوتا ونعدها، أقصد نطليها ونمد فيها الكهرباء ومواسير الماء لاستقبال القادمين. نقوم بذلك من شروق الشمس حتى الغروب. بعد الغروب نذهب لزيارة زملاء لنا لم يأتوا بعد. هم لا يعرفون أنهم قادمون، نحن نعرف. نذهب إليهم قبل أن يأتوا لنشد من أزرهم، أقصد نقوّيهم، ننقل لهم شيئا من خبراتنا، والأهم، أننا نتعرف، نأتنس بهم ويأتنسون بنا حتى إذا حانت الساعة وجاءوا للإقامة معنا يشعرون أنهم يأتون أهلا بعد أن غادروا أهلهم الآخرين. لدينا عمل كثير هذه الأيام».

لم أعتب عليه بعدها، لم أحرجه بقول تعال. حين يثقل الشوق عليّ أستحضره بالخيال، أتملى صورته، أقول لا بد أنه سيجد فترة هدوء تسمح له بزيارتي، التقي به في الشارع كما حدث من قبل، أو يأتيني من باب الخيال في غفوة بين الصحو والمنام.

غالبا ما أخرج من إغفاءاتي القصيرة هادئا، ولكن يحدث أحيانا أن أفتح عيني لأجد أطرافي باردة، يبلل العرق منابت شعري، فأعرف أن ما جاءني لم